(السلفية في دمشق قبل سبعين عاما)

قال الكاتب الأديب عبد الله الخميس وهو يتحدث عن السلفية في دمشق قبل سبعين سنة:

"قلت في غير مناسبة إن الفكر الإسلامي الآن متجه لتصفية الإسلام مما علق به من أدران الشبهات والخرافات والتضليل، والأخذ به نقياً خالصاً كيوم جاء به محمد بن عبد الله، وكما عرفه صحابته وسلف هذه الأمة الذين مثلوا الإسلام أصدق تمثيل، وفهموه كما ينبغي أن يفهم، أما حينما لطخه خلف هذه الأمة بكل مشين ووصموه بكل نقص وتضليل بغية التحقيق لأهدافها والدعاية لمبادئهم والتعظيم لعمائمهم والحفظ لمصالحهم؛ فهنالك شالت كفة الإسلام وهان عند أعدائه، وظلت الأجيال تحمل إسلامًا أجوف خاليًا من كل روح بعيدًا عن كل تقدم، ويومئذ قال أعداؤه:

إنه دين يصلح لزمانه الذي شرع فيه!! ولا يتمشى وانطلاقات هذا العصر وتحليقاته، ولا يواكب عصر الرادار والتلفزيون وتحطيم الذرة! قالوا هذا ومثله ومثله، ودللوا على ذلك بواقع أهله المشين.

فجاء بعض شباب الإسلام الناشيء ووجدها قضية مدعومة بدليل فصفق لها وحلق وغرب وشرق، وزعم أنه قبض على خاتم سليمان أو عصا موسى، وما علم

أن الدعوى باطلة وأن الدليل ملغوم، وأن تفاهة واقع المسلمين انحدرت إليهم من أنفسهم لا من دينهم، وأن الصارم البتار لم يزل ولن يزال يحمل جوهره وفعاليته، ولكن اليد التي تحمله هزيلة شلاء! لا تستطيع حمله ولا التدليل على مدى تأثيره، هكذا واقع المسلمين مع إسلامهم.

فأدرك هذا الغيرة على الإسلام في كافة الأقطار الإسلامية فأعلنوها سلفية نقية، وراحوا يدعون إليها ويعملون بها، وإذا قيل لهم أنتم وهابية وأنتم أتباع ابن تيمية، قالوا: نعم تجمعنا السنة المحمدية والرسالة الإسلامية!

وهكذا وجدت السلفية في دمشق بين صفوف الجامعة وفي حلقات العلماء يحملها شباب مثقف مستنير يدرس الطب والحقوق والآداب.

قال لي شاب منهم: ألا تحضر درسنا اليوم؟ فقلت: يشرفني ذلك! فذهبت مع الشاب لأجد فضيلة الشيخ ناصر الألباني محدث دمشق الكبير وحوله من يزيد على الأربعين طالبًا من شباب دمشق المثقف، وإذا الدرس جار في باب حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده طرق الشرك.

ومن كتاب التوحيد وشرحه فتح المجيد للمجدد الإمام محمد بن عبد الوهاب وحفيده رحمهما الله، فعجبت أشد العجب لهذه المصادفة الغريبة!

وأنصت لأسمع درس الشيخ، وإذا بي أسمع التحقيق والتدقيق والإفاضة في علم التوحيد وقوة الضلع فيه، وإذا بي أسمع مناقشة الطلبة الهادئة الرزينة واستشكالاتهم العميقة حتى انتهى درس التوحيد، وبدؤوا في درس الحديث بالروضة الندية، وهنا سمعت علمًا جمًا وفقهًا وأصولًا وتحقيقًا، وهكذا حتى انتهى الدرس.

ولم أزل طيلة مقامي بدمشق محافظًا على درس الشيخ، وقد انتهوا في علم التوحيد من كتاب فتح المجيد، وبدأوا في كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية؛ وفي كل حين يزداد عددهم وتتجدد رغبتهم ويكتبون وينشرون.

ومن تتبع مجلة التمدن والإسلامي وقف على ما لهذا الشيخ وتلامذته من نشاط وجهود. ولقد لمست بنفسي لهم تأثيرًا كبيرًا على كثير من الأوساط ذات التأثير في الرأي العام مما يبشر بمستقبل جد كبير لهذه الدعوة المباركة.

ومما أحب أن أشير إليه أنّ لهؤلاء الجماعة مركزًا يأوون إليه ويتلقون دروسهم فيه وقد أثث واتخذت فيه مكتبة.

كان هذا الشاب الذي هداني إلى هؤلاء الجماعة عضوًا عاملًا في جماعة الإخوان المسلمين بسوريا، بل من شخصياتهم اللامعة، **واسمه: زهير شاويش،** وقد طلبت إليه أن يعطيني فكرة عن هذه الجماعة السلفية ومتى تأسست وكيف سيرها، فأملى عليّ ما يلي:

"لا أعرف على وجه التحديد الوقت الذي بدأ فيه الشيخ اجتماعاته، وكان أول اتصالي به عام ١٩٤٥م، وكان يقرأ مع ما يقرب من ثلاثين أخًا كتاب زاد المعاد، وخرج من هذه الدراسة بكتابه القيم "التعليقات الجياد على كتاب زاد المعاد"، وهو مخطوط، وقد طلب مني الشيخ حامد الفقي عام ١٩٥٣م أن أطلبه من الشيخ، وأنه على استعداد لطبعه بجميع الشروط التي يضعها الشيخ، ولا أعرف السبب الذي منع الشيخ من إرسال كتابه للشيخ حامد.

ثم انقطعت عن الشيخ حتى عام ١٩٤٩م حيث قام الشيخ مع إخوانه بإحياء سنة صلاة العيد خارج المدينة.

وقرأ مع بعض إخوانه في ١٩٤٩ - ١٩٥٠م نخبة الفكر.

ثم بدأ مع إخوانه قراءة كتاب الروضة الندية بدار الأستاذ عبد الرحمن الباني، وقد اتسعت هذه الحلقة حتى أصبح الذين يحضرونها يتراوح عددهم بين ٤٠ - ٦٠ وأكثرهم من أهل الرأي والعلم.

ويقرأ في جلسة ثانية كتاب فتح المجيد، بناء على اقتراح الأستاذ عبد الحليم محمد أحمد، وهو مدرس مصري درس في الشام ثم في عمان، وقد قدم له بقراءة رسالة تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد، ويحضر هذه الجلسة عدد مماثل لعدد الجلسة الأولى.

وهناك جلسة شبه خاصة يدرس فيها كتاب الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث، وكتاب طبقات فحول الشعراء.

وبعد أن انتهى الإخوان من قراءة كتاب أصول الفقه لخلاف، وكانت تنعقد هذه الجلسة بدار الأستاذ علي الطنطاوي، وبعد سفره إلى باكستان عقدت بدار الدكتور أحمد حمدي الخياط.

وهناك درس مع بعض علماء الشام في التفسير وما زال هذا الدرس مستمرًا إلى اليوم، ويحضره عدد يتراوح بين ١٠ - ٢٠، وقد مضى على استمراره عدة سنوات.

ودرس في كتاب الترغيب والترهيب ويتراوح عدد حضوره بين ١٥ - ٢٥.

ومن بين الإخوان الذين يحضرون جميع أو بعض الدروس:

- الأستاذ أحمد راتب النفاخ المدرس في الجامعة السورية.
- الأستاذ عبد الرحمن الباني مفتش دروس الدين في وزارة المعارف.

- عبد الرحمن نحلاوي مدرس الفلسفة في ثانويات دمشق.
- رشاد رفيق سالم يُحضّر دكتوراه في الجامعة المصرية عن ابن تيمية وعضو لجنة الشباب المسلم المصرية.
- والأستاذ عصام عطار المدرس في المعهد العربي وعضو الهيئة التشريعية للإخوان المسلمين في سوريا.
- محمد مريدان (محامي) وموظف في ديوان المحاسبات.
- خالد صائمة (محامي).
- الدكتور نبيه غبرة (طبيب).
- الأستاذ محمد الصباغ مدرس الأدب العربي في ثانوية درعا.

وهكذا فإن هذه الدروس تجمع أمثال من ذكرنا من أهل العلم والفضل والأدب وممن يرجى منهم في المستقبل القريب إن شاء الله أن ينشروا السلفية في كافة ربوع سوريا وغيرها، إذا عرفنا أن منهم السوري والأردني والمصري والمغربي.

قلت في مطلع هذا البحث: إن العالم الإسلامي أخذ ينصاع إلى السلفية ويدعو إليها قادته ومفكروه، حتى لقد وقف المراقب العام للإخوان المسلمين الأستاذ مصطفى السباعي يذيع على العالم من محطة إذاعة دمشق محاضرتين قيمتين، إحداهما عن ليلة النصف من شعبان، والأخرى عن ليلة الإسراء والمعراج، نادى فيهما بعقيدة السلف وأهاب بالمسلمين إلى لزومها، وترك هذه الترهات التي لا يعرفها الإسلام، مما أثار عليه حفيظة من يعقدون فيهما الحلقات ويرتلون الترانيم بأشجى الأصوات ولكنها أصوات مخنوقة في طريقها إلى الزوال.

قال الأستاذ في محاضرته: "أول ما يعتاده الناس من الاجتماع في المساجد لقراءة دعائها المشهور -يقصد ليلة النصف من شعبان- بالنظام الذي سمعناه في هذه الليلة، وأما ما يقوم به بعض الناس من صلاة خاصة فيها فهو شيء لم يرد عن رسول الله، ولا عن صحابته، وأول من أثر عنه تخصيص هذه الليلة بالعبادة خالد بن معدان ومكحول الشامي؛ وهما من التابعين، ثم شاع ذلك عنهما.

ويقول بعدئذ: أما هذا الدعاء المشهور الذي يقرأه المسلمون في هذه الليلة، فلا يعرف له أصل عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة، بل لم يكن معروفاً حتى القرن الثامن الهجري فابن الحاج في كتابه المدخل، وهو من علماء القرن الثامن الهجري الذين عنوا بإنكار البدع والمواسم التي أحدثت في الدين، أنكر كل ما يفعله الناس في ليلة النصف من شعبان، ولم يذكر شيئًا عن هذا الدعاء، ولو كان معروفًا في عصره لتعرض لإنكاره حتمًا.

وإذن فهذا الدعاء من صنع المئات المتأخرة من السنين، وأغلب الظن أنه لم يوجد مرة واحدة، بل كان أهل كل عصر يزيدون فيه بعض الجمل والأدعية حتى انتهى إلينا بهذا الشكل، وهو من الناحية الشرعية غير جائز، ففيه الزعم بأن ليلة النصف من شعبان هي التي يفرق فيها كل أمر حكيم، وهذا زعم باطل باتفاق جمهور العلماء ولا عبرة بمن شذ عن ذلك من المفسرين.

ويسترسل قائلًا: وبعد، فهذا هو رأي الشريعة فيما يفعله الناس من عبادة ودعاء في هذه الليلة، وقد يفجع فيه العامة إذ يرون أن ما يعتقدون من شعائر الدين في هذه الليلة ليس فيه أثر عن النبي ﷺ ولا عن صحابته، ولكن الحق أحق أن يتبع، ودين الله لا يؤخذ بالهوى ولا بالعاطفة، وإنما هو دين ذو حدود مرسومة

ومعالم واضحة وما أحرى المقامات الدينية عندنا بأن تعلم الناس أحكام دينهم وتشرح لهم أن ما هم عليه في مثل هذه الليلة ليس إلا عادة موروثة لا شريعة متبعة".

وما قاله هذا العالم الجليل والمرشد المخلص عن هذه البدعة يصدق على مئات البدع التي طغت واستفحلت بين ظهرانينا، فعسى أن يأتي اليوم الذي نمحو فيه أخراها من الوجود إلى غير رجعة، وما ذلك على الله بعزيز.

ومن اتصلت بهم من علماء السلف في دمشق فضيلة الشيخ بهجة البيطار العالم الشهير، وصاحب كتاب الثقافتين الصفراء والبيضاء، وله مواقف تذكر فتشكر للذب عن عقيدة السلف.

وفضيلة الشيخ عبد الفتاح الإمام رئيس لجنة أنصار الفضيلة بدمشق، وهو عالم فاضل جليل، له كفاح ونضال ودعاية كبيرة لدعوة السلف، وله ثمانية عشر مؤلفًا، من بينها كتاب "الإسلام"؛ وكتاب "العلم والعقل شاهدان بعظمة الله"، و"عظمة الإسلام"، و"الإسلام والنصرانية"، و"الحضارة الإسلامية".. الخ.

ومن الجدير بالذكر ما أثير أثناء مقامي بدمشق من بحث حمي فيه الوطيس بين السلفيين والخلفيين حول حياة الأنبياء في قبورهم، فتصدى علماء السلف لخصومهم القائلين بأن الأنبياء يحيون في قبورهم حياة مستقرة كحياتنا، فأدحضوا حججهم وأبطلوا زعمهم وأبانوا للمسلمين حقيقة الإسلام حول هذه الناحية.

وممن تصدى لبيان الحقيقة وتنوير عقول الناس وأذهانهم فضيلة الشيخ محمد بهجة البيطار في الجامع الأموي، وفضيلة الشيخ علي الطنطاوي من محطة الإذاعة السورية فشفيا وكفيا.

وللأستاذ الطنطاوي مواقف مشهورة منها ما كتبه في الرسالة عن التوسل والوسيلة عام ١٩٥٢م، وخطبة في مسجد الجامعة السورية، ومقالاته في بعض الجرائد السورية، وتفسير سورة الفاتحة الذي ألقاه في هذا العام من محطة الإذاعة السورية.

وقد علمت من الأخ زهير شاويش أنّ في حماه وحلب واللاذقية ودير الزور وبقية المحافظات السورية وثبات من علماء وشباب مثقف نحو المنهج الإسلامي الصحيح، الأمر الذي يبشر بخير ويجعلنا نتفاءل بخير.

وكذا في بيروت حركة مماثلة لحركة دمشق، وفي طرابلس جماعة من تلامذة الشيخ محمد رشيد رضا وأقاربه يقومون بالدعوة خير قيام ويرسلون الوفود إلى الجبل وبلاد الساحل السوري للدعوة".

من كتاب: شهر في دمشق، (ص ٨٢).